في موكب النهضة

كتـــابان

للأستاذ علي العماري

يخطئ الذين يظنون أن الحياة المصرية تحتاج إلى التجديد من ناحيتيها السياسية والاجتماعية فحسب، ويرون أن الجمود والتأخر والبطء كانت تلازم هاتين الناحيتين، ولا غير؛ فالحق الذي لا سبيل إلى المراء فيه أن الحياة المصرية أصابها الركود والجمود في كل نواحيها، وإن كانت نسبة هذا الجمود وهذا الركود في ناحية أقوى وأظهر منها في أخرى، ولذلك فإن النهضة والبعث والتجديد يجب أن تمس كل نواحي الحياة مسا رفيقا أو عنيفا على حسب ما تحتمله طاقة الأمة

وإلا فهل في مصر وفي العالم العربي من الفاقهين المخلصين لدينهم ولغتهم من يجهل مدى الجمود الذي يسيطر على الدراسات العربية والشرعية؟

فكما أننا كنا في حاجة ماسة إلى من يجدد لنا حياتنا السياسية، وحياتنا الاجتماعية، كذلك نحن في أمس الحاجة إلى من يجدد لنا حياتنا العلمية، ومحاسة في الناحيتين اللغوية والشرعية

والذين لا يتعبدون بدراسة الكتب القديمة، ولا يعتقدون أن الله جعل علم اللغة وعلم الشريعة وقفا على الأقدمين، ويؤمنون أشد الإيمان بأن أتفه كلمة في العربية هذه التي يتناقلها الخلف عن السلف: «ما ترك الأول للآخر شيئا» هؤلاء يعتقدون أن حاجتنا إلى تجديد هذه الدراسات، وصوغها صياغة جديدة لا تقل — في ميزان النهضة — عن حاجتنا إلى تجديد سياسة الأمة وحالها الاجتماعية

وقد يطول الحديث ويتشعب لو أخذت أبين ما في هذه الدراسات من جمود، ولو بالإشارة العابرة، فلذلك سأقصر حديثي عن الدراسات العربية، بل عن كتابين اثنين من هذه الكتب العربية التي تتعبد بدراستها في مصر وفي غير مصر من الأقطار العربية. وكم كنت أود أن لم ييسر الله لصاحبي هذين الكتابين في تأليفهما، فإن الخطر الذي دخل على العربية منهما لا يقل عن الخطر الذي أصاب الحياة المصرية من تحكم رجال الأقطاع والطبقة الحاكمة

أما أول هذين الكتابين فألفية ابن مالك. أقول هذا وأنا على يقين من أن آلافا من الناس سيفتحون أفواههم، وستجحظ عيونهم تعجبا، ودهشة، ولكن الذي يؤثر الحق لا يبالي

وضع ابن مالك ألفيته في النحو في القرن السابع الهجري، ومنذ ذلك التاريخ وعلماء النحو يتخذون هذه الألفية كعبة يطوفون حولها، يضعون لها الشروح، ويضعون على الشروح الحواشي، ثم يتفضلون بالتقارير يستدركون بها على ما في هذه الحواشي، وبعضهم يؤلف في إعراب الألفية، وأكثر هذه الكتب وضع في عصر الضعف الأدبي، ففيها ما شئت من تعقيد والتواء، ومن تعليلات تافهة لا تستند إلى منطق معقول. وقد أضر عكوف العلماء بهذه الصورة على هذا الكتاب، فوقف الاجتهاد في النحو، وأصبحت غاية المتعلمين أن يفهموا تلك العبارات الملتوية، وأن يحسنوا الجدل في تخريجها وتصحيحها. وربما كان هذا معقولا ومقبولا في تلك العصور التي ركدت فيها ريح العلم، وعمها الانحطاط في كل نواحيها، ولكنه غير معقول ولا مقبول في هذا العصر الذي يمتاز بالسرعة، ويتطلب المحافظة على الوقت ويضيق به أن يضيع في فهم عبارات لا جدوى من فهمها — إن فهمت — وكم تكون الكارثة أعظم لو ظللنا على هذه الحال مع هذه النهضة المباركة، فنحن نقف والقافلة تسير، وويل للمتخلف

لا تزال الآثار التي يوحي بها تقديس هذه الكتب مسيطرة على أفكارنا وعلى آرائنا وعلى تقديراتنا وعلى مناهجنا، فنحن نجيز الطالب ونمنحه شهادة دراسية يكافح بها في الحياة لأنه حفظ شرح ابن عقيل، أو شرح الأشموني على الألفية. ونحن نشيد بعلم العالم لأنه لا تغيب عنه كبيرة ولا صغيرة من هذا الكتاب أو ذاك، ونحن نسأل عن فلان فيقال لنا إنه عالم جليل، ونسأل عن علمه الجليل فيقال لنا إنه أقدر الناس على فهم الكتب الأزهرية، وتخريج عباراتها، وتعجب أشد العجب حين تذهب إلى هذا العالم الجليل فلا يختلف في نظرك عن الكتاب الأصم في شيء، فأنت تستطيع

أن تستغنى بالكتاب عن ملاقاته والاستماع إليه ، تسأله فيدلك على موضع الجواب من الكتاب ، فإذا تحلل الجواب بيت من الشعر ، أو حكمة مأثورة لم يزد فى تعريفك بها على موضع الشاهد منها ، أما المعنى الأدبى للبيت أو للحكمة ، فيشرحه لك شرحا عاميا كما لو سألت جاهلا لم يطلع على شئ من كتب النحو

وهذه الأمثلة السخيفة التى تطالعك فى كل صفحة ، وتؤذى سمعك وإحساسك فى كل حين ، هى هى منذ أن وضع النحو واضعوه ! أما الشواهد فهى فى الأغلب الأعم من الشعر الركيك المتهافت ، وقد ورط القدماء فى هذا ما كانوا يعتقدونه خطأ من قولهم « البحث فى المثال ليس من دأب المحققين »

ولو كنا — حقا — نريد أن نساير النهضة ، لطرحنا هذه المؤلفات جانبا ، وكتبنا النحو العربى من جديد ، وكتبناه بأسلوب واضح أدبى ، ولتركنا الأمثلة جملة وتفصيلا ، واعتمدنا على الشواهد الفصيحة من القرآن والحديث ، والشعر والنثر ، وليس من المنطق السليم أن نعهد بهذا التجديد إلى أولئك الذين تحجرت عقولهم على القديم ، وأصبحوا لا يؤمنون إلا به ، لأنهم لا يحسنون غيره ، وهذه الحكمة البسيطة الساذجة هى التى تهدينا فى هذا السبيل (إنك لن تجتنى من الشوك العنب) . بل يجب أن نعهد بهذا العمل إلى العلماء الأدباء الذين تعمقوا فى دراسة النحو العربى ولهم مع ذلك ذوق أدبى جميل ، فهؤلاء هم ضالتنا .

أما ثانى الكتابين ، فهو « تلخيص » المفتاح للخطيب القزوينى ، وما قلته عن ألفية ابن مالك هو نفسه الذى يقال عن التلخيص ، مع فارق واحد ، هو أن الأمر مع هذا التخليص أدهى وأمر ، ذلك أنه فى علوم البلاغة ، وهذه العلوم أمس بالبيان العربى من علم النحو ، فربما لا يروعنا أن نجد العلماء والمتعلمين فى النحو لا يتذوقون الأساليب البيانية العالية ، ولا يحسنون أن يأتوا بشئ منها قل أو كثر ، ولكنه يؤسفنا أشد الأسف أن نجد الدارسين للبلاغة أبعد الناس عن تذوق البليغ من القول

والتلخيص كالألفية منذ وضع وهو قطب رحا البلاغة ، يدور حوله ، وتستهدى بضوئه مع مافى شروحه الكثيرة من خلط وخبط ، وضعف وتفكك ، فهى مملوءة بالمباحث الكلامية ، والمباحث المنطقية ، والمباحث الفلسفية ، ونصيب الذوق الأدبى منها أقل من القليل .

ومع ذلك فهى التى يعتمد عليها دارسو البلاغة العربية جل الاعتماد ، وما ظهر من الكتب الحديثة ليس إلا صورة من تلك الكتب ، وإن زادت عليها شيئا من الشواهد والتمارين ، لكن الطريقة القديمة والأمثلة القديمة والشواهد القديمة هى هى ، ومن عجيب الأمر أن بعض الشراح القدماء يعيبون بعض هذا المنهج ، ولكنهم يسلكونه ، وأشد من ذلك عجبا أن يسلكه المحدثون . هذا سعد الدين التفتازانى ، وهو صاحب القدح المعلى فى الكتابة عن التخليص ، وأبيه (المفتاح) بقوا عالقا طريقة السكاكى فى حشد كثير من التقسيمات فى باب التشبيه ، يقول : « واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التى لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة ، قليلة الجدوى ، وكأن هذا ابتهاج ، من السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فلله در الإمام عبد القاهر ، وإحاطته بأسرار كلام العرب ، وخواص تراكيب البلغاء ، فإنه لم يزد فى هذا القسم على الكثير من أمثلة أنواع التشبيهات ، وتحقيق اللطائف المودعة فيها » . وما يقال عن التقسيمات فى التشبيه يقال عن كثير من التفريعات فى علوم البلاغة الثلاثة

إننى دافعت هنا فى مجلة الرسالة الغراء ، منذ سنوات عن البلاغة العربية ، وهأنذا الآن أدعو إلى نبذ هذه الكتب منها ، وليس — فى الحق — أى تناقض بين الموقفين ، فقد كنت هناك أدافع عن البلاغة كعلم عربى ألف فيه عبد القاهر والزمخشرى ، وابن سنان ، وابن الأثير ، والآمدى ، والجرجانى عبد العزيز ، وأبو هلال العسكرى ، وأنا هنا أضرب المعول فى هذه الكتب التى نهجت منهج السكاكى والخطيب فجعلت البلاغة جدلا لفظيا عقيما

وقد يتساءل متسائل ، أو تعجبك هذه الكتب التى وضعها المحدثون ، والتى تعنى بالشواهد الفصيحة ؟ والجواب : لا . فإنها كتب جوفاء لا غناء فيها . والذى أريده أن تدرس البلاغة العربية القديمة فى كتبها ذات الأسلوب العالى والتفكير المستقيم ثم تكتب بلغة أدبية عالية ، ويزاد فيها أو ينقص منها ، ولكن لا تخلو كتابتها من هذه اللمحات القوية التى دونها العلماء السابقون